(٧) سلسلة التعليق على كتب ورسائل شيخ الإسلام

أبي العباس ابن تيمية

رَحِمَهُ ٱللَّهُ

رسالة

# قاعدة في

# توحيد الألوهية

# وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما .

وبعد : فهذه قاعدة جليلة فى توحيد الله ، وإخلاص الوجه والعمل له ، عبادة واستعانة[1] قال الله تعالى : ( قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ) الآية . وقال تعالى : ( وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ) . وقال تعالى : ( وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) . وقال تعالى فى الآية الأخرى : ( وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ) . وقال تعالى : ( إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ) . وقال تعالى : ( فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ) . وقال تعالى : ( عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ) . وقال تعالى : ( يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) . وقال تعالى : ( فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ) . وقال تعالى : ( قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ) . الآية . وقال تعالى : ( قُلِ

(١) تسمى قاعدة في توحيد الإلهية .

ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ) وقال تعالى : ( قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ) وقال تعالى : ( وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) . وقال تعالى : ( وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ) الآية . وقال تعالى : ( وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ) الآية . ونظائر هذا فى القرآن كثير ، وكذلك فى الأحاديث ، وكذلك فى إجماع الأمة لا سيما أهل العلم والإيمان منهم ، فإن هذا عندهم قطب رحى الدين كما هو الواقع .

ونبين هذا بوجوه نقدم قبلها مقدمة .

وذلك أن العبد بل كل حى بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج إلى جلب ما ينفعه ، ودفع مايضره ، والمنفعة للحى هى من جنس النعيم واللذة ؛ والمضرة هى من جنس الألم والعذاب ، فلا بد له من أمرين : —

أحدهما : هو المطلوب المقصود المحبوب الذى ينتفع ويلتذ به .

والثانى : هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه . وهذان هما الشيئان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء : —

أحدها : أمر هو محبوب مطلوب الوجود .

والثانى : أمر مكروه مبغض مطلوب العدم .

والثالث : الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب .

والرابع : الوسيلة إلى دفع المكروه ، فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد بل ولكل حى لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها ؛ وأما ماليس بحى فالكلام فيه على وجه آخر .

إذا تبين ذلك فبيان ماذكرته من وجوه : —

أحدها : أن الله تعالى هو الذى يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب ، وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه ، وهو المعين على دفع المكروه ؛ فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه ، وهذا معنى قوله : ( إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ) فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب ؛ لكن على أكمل الوجوه ، والمستعان هو الذى يستعان به على المطلوب ؛ فالأول من معنى الألوهية .

والثانى من معنى الربوبية ؛ إذ الإله : هو الذى يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراماً والرب : هو الذى يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها ؛ وكذلك قوله تعالى : ( عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ) . وقوله : ( فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ) . وقوله : ( عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ) . وقوله تعالى : ( وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ) . وقوله تعالى : ( عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ) ، وقوله : ( وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ) فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين .

الوجه الثانى : أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ، ومحبته والإخلاص له فبذكره تطمئن قلوبهم ، وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم ولا شيء يعطيهم فى الآخرة أحب إليهم من النظر إليه ، ولا شيء يعطيهم فى الدنيا أعظم من الإيمان به .

وحاجتهم إليه فى عبادتهم إياه وتألههم لحاجتهم وأعظم فى خلقه لهم وربوبيته إياهم ، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، وبذلك يصيرون عاملين متحركين ، ولا صلاح لهم ولا فلاح ، ولا نعيم ولا لذة ، بدون ذلك بحال . بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى .

ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات ، وكان التوحيد بقول : لا إله إلا الله ، رأس الأمر .

فأما توحيد الربوبية الذى أقر به الخلق ، وقرره أهل الكلام ، فلا يكفى وحده ، بل هو من الحجة عليهم ، وهذا معنى مايروى : « يا ابن آدم ، خلقت كل شيء لك ، وخلقتك لى ، فبحقى عليك ألا تشتغل بما خلقته لك ، عما خلقتك له .

واعلم أن هذا حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، كما فى الحديث الصحيح ، الذى رواه معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أتدرى ماحق الله على عباده ؟ قال قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتدرى ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ . قال قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حقهم ألا يعذبهم » .

وهو يحب ذلك ، ويرضى به ؛ ويرضى عن أهله ، ويفرح بتوبة من عاد إليه ؛ كما أن فى ذلك لذة العبد وسعادته ونعيمه ؛ وقد بينت بعض معنى محبة الله لذلك وفرحه به فى غير هذا الموضع .

فليس فى الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ، ويتنعم بالتوجه إليه ؛ إلا الله سبحانه ؛ ومن عبد غير الله وإن أحبه وحصل له به مودة فى الحياة الدنيا ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم

( لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ )

فإن قوامهما بأن تأله الإله الحق فلو كان فيهما آلهة غير الله لم يكن إلهاً حقاً ؛ إذ الله لا سمى له ولا مثل له ؛ فكانت تفسد لانتفاء ما به صلاحها هذا من جهة الإلهية .

وأما من جهة الربوبية فشىء آخر ؛ كما نقرره فى موضعه .

واعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئاً ، ليس له نظير فيقاس به ؛ لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب ؛ وبينهما فروق كثيرة .

فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، وهى لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذى لا إله إلا هو : فلا تطمئن فى الدنيا إلا بذكره : وهى كادحة إليه كدحا فملاقيته ولا بد لها من لقائه ، ولا صلاح لها إلا بلقائه .

ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ، ومن شخص إلى شخص ، ويتنعم بهذا فى وقت وفى بعض الأحوال ، وتارة أخرى يكون ذلك الذى يتنعم به والتذ غير منعم له ولا ملتذ له ، بل قد

يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ، ويضره ذلك .

وأما إلهه فلا بد له منه فى كل حال وكل وقت ، وأينما كان فهو معه ؛ ولهذا قال إمامنا ( إبراهيم ) الخليل صلى الله عليه وسلم ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ . وكان أعظم آية فى القرآن الكريم : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ . وقد بسطت الكلام فى معنى القيوم فى موضع آخر ، وبينا أنه الدائم الباقى الذى لا يزول ولا يعدم ، ولا يفنى بوجه من الوجوه .

واعلم أن هذا الوجه مبنى على أصلين :

أحدهما : على أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان ، وكما دل عليه القرآن ؛ لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام ونحوهم : إن عبادته تكليف ومشقة ! . وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان والاختبار ؛ أولأجل التعويض بالأجرة كما يقوله المعتزلة وغيرهم ؛ فإنه وإن كان فى الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس ـ والله سبحانه يأجر العبد على الأعمال المأمور بها مع المشقة ، كما قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة : أجرك على قدر نصبك ـ فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعى ، وإنما وقع ضمنا وتبعا لأسباب ليس هذا موضعها ، وهذا يفسر فى موضعه .

ولهذا لم يجئ فى الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح : أنه تكليف كما يُطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقهه ، وإنما جاء ذكر التكليف فى موضع النفى ؛ كقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .

( لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ) ( لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ) أى وإن وقع فى الأمر تكليف ، فلا يكلف إلا قدر الوسع ، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفاً ، مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب ، ولذات الأرواح وكمال النعيم ، وذلك لإرادة وجه الله والإنابة إليه ، وذكره وتوجه الوجه إليه ، فهو الإله الحق الذى تطمئن إليه القلوب ، ولا يقوم غيره مقامه فى ذلك أبداً . قال الله تعالى : ( فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ؟ ) فهذا أصل .

( الأصل الثانى ) : النعيم فى الدار الآخرة أيضاً مثل النظر إليه لا كما يزعم طائفة من أهل الكلام ونحوهم ، أنه لا نعيم ولا لذة إلا بالمخلوق : من المأكول والمشروب والمنكوح ونحو ذلك ، بل اللذة والنعيم التام فى حظهم من الخالق سبحانه وتعالى ، كما فى الدعاء المأثور : ( اللهم إنى أسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة . رواه النسائى ، وغيره وفى صحيح « مسلم » وغيره ، عن « صهيب » عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ ! ألم يبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويجرنا من النار ؟ ! قال : فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه ـ سبحانه . فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهو الزيادة .

فبين النبى صلى الله عليه وسلم : أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم الله فى الجنة لم يعطهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وإنما يكون أحب إليهم لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره . فإن اللذة تتبع الشعور بالمحبوب ، فكلما كان الشىء أحب إلى الإنسان كان حصوله ألذ له ، وتنعمه به أعظم .

وروى أن يوم الجمعة يوم المزيد ، وهو يوم الجمعة من أيام الآخرة ، وفى الأحاديث والآثار ما يصدق هذا ، قال الله تعالى فى حق الكفار : ( كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ) . فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب . ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات ؛ ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه تعالى .

وهذان الأصلان ثابتان فى الكتاب والسنة ، وعليهما أهل العلم والإيمان ويتكلم فيهما مشايخ الصوفية العارفون ، وعليهما أهل السنة والجماعة ، وعوام الأمة ، وذلك من فطرة الله التى فطر الناس عليها .

وقد يحتجون على من ينكرها بالنصوص والآثار تارة ، وبالذوق والوجد أخرى - إذا أنكر اللذة - فإن ذوقها ووجدها ينفى إنكارها . وقد يحتجون بالقياس فى الأمثال تارة ، وهى الأقيسة العقلية .

الوجه الثالث : أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر ، ولا عطاء ولا منع ، ولا هدى ولا ضلال ، ولا نصر ولا خذلان ، ولا خفض ولا رفع ، ولا عز ولا ذل ، بل ربه هو الذى خلقه ورزقه ، وبصره وهداه وأسبغ عليه نعمه ، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره ، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه ، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله ، وهذا الوجه أظهر للعامة من الأول ، ولهذا خوطبوا به فى القرآن أكثر من الأول ، لكن إذا تدبر اللبيب طريقة القرآن ، وجد أن الله يدعو عباده بهذا الوجه إلى الأول .

فهذا الوجه يقتضى ، التوكل على الله ، والاستعانة به . ودعاءه . ومسألته ، دون ما سواه . ويقتضى أيضاً : محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده ، وإسباغ

نعمه عليه ، وحاجة العبد إليه فى هذه النعم ، ولكن إذا عبدوه وأحبوه ، وتوكلوا عليه من هذا الوجه ، دخلوا فى الوجه الأول ، ونظيره فى الدنيا من نزل به بلاء عظيم أو فاقة شديدة أو خوف مقلق ، فجعل يدعو الله ويتضرع إليه حتى فتح له من لذة مناجاته ما كان أحب إليه من تلك الحاجة التى قصدها أولا ، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولا حتى يطلبه ويشتاق إليه .

والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه ، ومن ذكر نعمائه عليهم ، ومن ذكر ما وعدهم فى الآخرة من صنوف النعيم واللذات وليس عند المخلوق شىء من هذا ، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على إحسانه .

الوجه الرابع : أن تعلق العبد بما سوى الله مضرة عليه ، إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته فى عبادة الله ، فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته ، ضره وأهلكه ، وكذلك من النكاح واللباس ، وإن أحب شيئاً حباً تاماً بحيث يخالله فلا بد أن يسأمه ، أو يفارقه . وفى الأثر المأثور : أحبب ماشئت فإنك مفارقه . واعمل ماشئت فإنك ملاقيه . وكن كما شئت فكما تدين تدان .

واعلم أن كل من أحب شيئاً لغير الله فلا بد أن يضره محبوبه ، ويكون ذلك سبباً لعذابه ، ولهذا كان الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، يمثل لأحدهم كنزه يوم القيامة شجاعاً أقرعَ يأخذ بلهزمته . يقول : أنا كنزك . أنا مالك .

وكذلك نظائر هذا فى الحديث : يقول الله يوم القيامة : ( يا ابن آدم ، أليس عدلا منى أن أولى كل رجل منكم ما كان يتولاه فى الدنيا ؟ ) : وأصل التولى

الحب ؛ فكل من أحب شيئاً دون الله ولاه الله يوم القيامة ماتولاه ؛ وأصلاه جهنم وساءت مصيراً ؛ فمن أحب شيئاً لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد ؛ أو فقد ؛ فإن فقد عذب بالفراق وتألم ؛ وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة ؛ وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء ؛ وكل من أحب شيئاً دون الله لغير الله فإن مضرته أكثر من منفعته ؛ فصارت المخلوقات وبالا عليه إلا : ما كان لله وفى الله ؛ فإنه كمال وجمال للعبد ؛ وهذا معنى مايروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الدنيا ملعونة ملعون مافيها ؛ إلا ذكر الله وما والاه » . رواه الترمذى ؛ وغيره .

الوجه الخامس : أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته ؛ فإنه يخذل من تلك الجهة ؛ وهو أيضاً معلوم بالاعتبار والاستقراء ؛ ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة ؛ ولا استنصر بغير الله إلا خذل . وقد قال الله تعالى : ( وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ) .

وهذان الوجهان فى المخلوقات نظير العبادة والاستعانة فى المخلوق ؛ فلما قال : ( إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ) كان صلاح العبد فى عبادة الله واستعانته . وكان فى عبادة ماسواه ؛ والاستعانة بما سواه ؛ مضرته وهلاكه وفساده .

الوجه السادس : أن الله سبحانه غنى . حميد . كريم . واجد . رحيم ، فهو سبحانه محسن إلى عبده مع غناه عنه ؛ يريد به الخير ويكشف عنه الضر ؛ لا لجلب منفعة إليه من العبد ؛ ولا لدفع مضرة ؛ بل رحمة وإحسانا ؛ والعباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم ؛ فأكثر ماعندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ؛ ويجلبوا

له منفعة ويدفعوا عنه مضرة ما . وإن كان ذلك أيضاً من تيسير الله تعالى فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد إذا لم يكن العمل لله . فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر فإذا أحبوا الأنبياء والأولياء طلبوا لقاءهم فهم يحبون التمتع برؤيتهم ؛ وسماع كلامهم ؛ ونحو ذلك .

وكذلك من أحب إنسانا لشجاعته أو رياسته ؛ أو جماله أو كرمه ؛ فهو يحب أن ينال حظه من تلك المحبة ؛ ولولا التذاذه بها لما أحبه ؛ وإن جلبوا له منفعة كخدمة أو مال ؛ أو دفعوا عنه مضرة كمرض وعدو — ولو بالدعاء أو الثناء — فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله ؛ فأجناد الملوك ؛ وعبيد المالك ؛ وأجراء الصانع ؛ وأعوان الرئيس ؛ كلهم إنما يسعون فى نيل أغراضهم به ؛ لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدوم ؛ إلا أن يكون قد علم وأدب من جهة أخرى ؛ فيدخل ذلك فى الجهة الدينية ؛ أو يكون فيها طبع عدل ؛ وإحسان من باب المكافأة والرحمة ؛ . . وإلا فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه ؛ وهذا من حكمة الله التى أقام بها مصالح خلقه ؛ وقسم بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ؛ ورفع بعضهم فوق بعض درجات ؛ : ليتخذ بعضهم بعضا سخريا .

إذا تبين هذا ظهر أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول ؛ بل إنما يقصد منفعته بك وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر إذا لم يراع العدل ؛ فإذا دعوته ؛ فقد دعوت من ضره أقرب من نفعه .

والرب سبحانه يريدك لك ؛ ولمنفعتك بك ؛ لا لينتفع بك . وذلك منفعة عليك بلا مضرة . فتدبر هذا ؛ فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أو

تطلب منه منفعة لك ، فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول ، كما أنه لا يقدر عليه . ولا يحملنك هذا على جفوة الناس ، وترك الاحسان إليهم ، واحتمال الأذى منهم ؛ بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم ؛ وكما لا تخفهم فلا ترجهم ؛ وخف الله فى الناس ولا تخف الناس فى الله ، وارج الله فى الناس ولا ترج الناس فى الله ؛ وكن ممن قال الله فيه : ( وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ) . وقال فيه : ( إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ) .

الوجه السابع : أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجاتهم بك وإن كان ذلك ضرراً عليك ، فإن صاحب الحاجة أعمى لا يعرف إلا قضاءها .

الوجه الثامن : أنه إذا أصابك مضرة كالخوف والجوع والمرض ؛ فإن الخلق لا يقدرون على دفعها إلا بإذن الله ، ولا يقصدون دفعها إلا لغرض لهم فى ذلك .

الوجه التاسع : أن الخلق لو اجتهدوا أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بأمر قد كتبه الله لك ، ولو اجتهدوا أن يضروك لم يضروك إلا بأمر قد كتبه الله عليك ؛ فهم لا ينفعونك إلا بإذن الله ، ولا يضرونك إلا بإذن الله ؛ فلا تعلق بهم رجاءك .

قال الله تعالى : ( أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ * أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ) . والنصر يتضمن دفع الضرر ، والرزق يتضمن حصول المنفعة

قال الله تعالى : ( فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ) . وقال تعالى : ( أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ) . وقال الخليل عليه السلام : ( رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ) الآية . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم » : بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم ؟ .

---

# فصـــــل

جماع هذا أنك أنت إذا كنت غير عالم بمصلحتك ، ولا قادر عليها ، ولا مريد لها كما ينبغى ؛ فغيرك من الناس أولى ألا يكون عالماً بمصلحتك ، ولا قادرا عليها ، ولا مريدا لها ؛ والله - سبحانه - هو الذى يعلم ولا تعلم ، ويقدر ولا تقدر ، ويعطيك من فضله العظيم ، كما فى حديث الاستخارة : « اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأســـألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب » .

---

# فصـــــل

وهو مثل المقدمة لهذا الذى أمامه ، وهو أن كل إنسان فهو همام حارث حساس متحرك بالإرادة ، بل كل حى فهو كذلك له عـــلم وعمل بإرادته . والإرادة هى المشيئة والاختيار ، ولا بد فى العمل الإرادى الاختيارى من مراد وهو المطلوب ، ولا يحصل المراد إلا بأسباب ، ووسائل تحصله ، فإن حصل بفعل العبد فلا بد من قدرة وقوة ؛ وإن كان من خارج فلا بد من فاعل غيره ؛ وإن كان منه ومن الخارج فلا بد من الأسباب ، كالآلات ونحو ذلك ، فلا بد لكل حى من إرادة ، ولا بد لكل مريد من عون يحصل به مراده .

فصار العبد مجبولا على أن يقصد شيئاً ويريده ؛ ويستعين بشىء ويعتمد عليه فى تحصيل مراده هـذا أمر حتم لازم ضرورى فى حق كل إنسان يجده فى نفسه . لـكن المراد والمستعان على قسمين :

منه ما يراد لغيره ، ومنه مايراد لنفسه . والمستعان : منه ماهو المستعان لنفسه ، ومنه ماهو تبع للمستعان وآلة له ، فمن المراد ما يكون هو الغاية المطلوب ، فهو الذى يذل له الطالب ويحبـه ، وهو الإله المقصود ، ومنه مايراد لغيره ، وهو بحيث يكون المراد هو ذلك الغير ، فهذا مراد بالعرض . ومن المستعان ما يكون هو الغاية التى يعتمد عليه العبد ؛ ويتوكل عليه ؛ ويعتضد به ؛ ليس عنده فوقه غاية فى الاستعانة ومنه ما يكون تبعاً لغيره ، بمنزلة الأعضاء مع القلب ؛ والمـال مع المـالك ؛ والآلات مع الصانع .

فإذا تدبر الإنسان حال نفسه وحال جميع الناس ، وجدهم لا ينفكون عن هذين الأمرين : لا بد للنفس من شيء تطمئن إليه وتنتهي إليه محبتها ، وهو إلهها . ولا بد لها من شيء تثق به وتعتمد عليه في نيل مطلوبها هو مستعانها ، سواء كان ذلك هو الله أو غيره وإذاً فقد يكون عاماً وهو الكفر ، كمن عبد غير الله مطلقاً ، وسأل غير الله مطلقاً . مثل : عباد الشمس والقمر وغير ذلك الذين يطلبون منهم الحاجات ، ويفزعون إليهم في النوائب .

وقد يكون خاصاً في المسلمين ، مثل : من غلب عليه حب المال، أو حب شخص ، أو حب الرياسة ، حتى صار عبد ذلك ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدرهم ! تعس عبد الدينار ! تعس عبد الخميصة ! تعس عبد الخميلة ! : إن أعطى رضي ، وإن منع سخط ! تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » وكذلك من غلب عليه الثقة بجاهه وماله ، بحيث يكون عنده مخدومه من الرؤساء ونحوهم ، أو خادمه من الأعوان والاجناد ونحوهم ، أو أصدقائه أو أمواله ، هي التي تجلب المنفعة الفلانية وتدفع المضرة الفلانية ، فهو معتمد عليها ومستعين بها والمستعان هو مدعو ومسؤول .

وما أكثر ما تستلزم العبادة الاستعانة ، فمن اعتمد عليه القلب في رزقه ونصره ونفعه وضره ، خضع له وذل ،وانقاد وأحبه من هذه الجهة وإن لم يحبه لذاته لكن قد يغلب عليه الحال حتى يحبه لذاته ، وينسى مقصوده منه ؛ كما يصيب كثيرا ممن يحب المال أو يحب من يحصل له به العز والسلطان .

وأما من أحبه القلب وأراده وقصده ، فقد لا يستعينه ويعتمد عليه إلا إذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه ، كاستشعار المحب قدرة المحبوب على وصله

فإذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه استعانه ، وإلا فلا ؛ فالأقسام ثلاثة فقد يكون محبوباً غير مستعان ، وقد يكون مستعانا غير محبوب ، وقد يجتمع فيه الأمران .

فإذا علم أن العبد لا بد له فى كل وقت وحال من منتهى يطلبه هو إلهه ، ومنتهى يطلب منه هو مستعانه ؛ — وذلك هو صمده الذى يصمد إليه فى استعانته وعبادته — تبين أن قوله : ( إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ) كلام جامع محيط أولا وآخرا ، لا يخرج عنه شىء ، فصارت الأقسام أربعة .

إما أن يعبد غير الله ويستعينه — وإن كان مسلما — فالشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل .

وإما أن يعبده ويستعين غيره ، مثل كثير من أهل الدين ، يقصدون طاعة الله ورسوله وعبادته وحده لا شريك له ، وتخضع قلوبهم لمن يستشعرون نصرهم ، ورزقهم ، وهدايتهم ، من جهته : من الملوك والأغنياء والمشايخ .

وإما أن يستعينه — وإن عبد غيره — مثل كثير من ذوى الأحوال ؛ وذوى القدرة وذوى السلطان الباطن أو الظاهر ، وأهل الكشف والتأثير ؛ الذين يستعينونه ويعتمدون عليه ويسألونه ويلجأون إليه ؛ لكن مقصودهم غير ما أمر الله به ورسوله ، وغير اتباع دينه وشريعته التى بعث الله بها رسوله .

والقسم الرابع : الذين لا يعبدون إلا إياه ، ولا يستعينون إلا به ، وهذا القسم الرباعى قد ذكر فيما بعد أيضا ، لكنه تارة يكون بحسب العبادة والاستعانة وتارة يكون بحسب المستعان ، فهنا هو بحسب المعبود والمستعان ؛ لبيان أنه لا بد لكل عبد من معبود مستعان ، وفيما بعد بحسب عبادة الله واستعانته ؛ فإن الناس فيها على أربعة أقسام .